الفصل الثاني

قسمات المجتمع الأمثل في المنظور القرآني

القسمة الأولى: وحدانية المعبود، فلا تأليه لغير الله

القسمة الثانية: قوام حركة المجتمع هو دفع الحق للباطل ودفع الخير للشر، والتمكين فى الأرض لكلمات الله.

القسمة الثالثة: إعمار الأرض ومقومات الاستخلاف.

القسمة الرابعة: التوازن بين العلاقات فى كيان المجتمع

(الاجتماعية - الاقتصادية - السياسية - الإنسانية)

القسمة الخامسة: الدور القدرى للمجتمع المسلم - عالميا- ومفهوم خيرية الأمة.

القسمة الأولى

وحدانية المعبود فلا تأليه لغير الله

أولى قسمات المجتمع «القرآنى» المنشود ـ وبتعبير آخر ـ الإطار الذى تكون به بداية تكوين هذا المجتمع، وتكون بفقدانه نهايته، هو **إطار العبودية والعبادة لله سبحانه**، فهى الغاية وهى أساس خلقه للناس، كما كانت أساس ومحور جميع الرسالات السماوية لجميع رسل الله ـ عليهم السلام ـ على نحو ما جاءت به آيات القرآن الكريم على ألسنتهم جميعا فى مثل قوله:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾(١).

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾(٢).

(١) سورة الأعراف، من الآية : ٥٩.
(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٦٥.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾(١).

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾(٢).

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾(٣).

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾(٤).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(٥).

* ثم تأتى الآية الكريمة، الكاشفة بوضوح عن علة الخلق فى قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٦).

* * *

ولأهمية هذه القسمة ـ قسمة التوحيد والعبودية لله وحده ـ نرى مفرداتها تكررت فى القرآن الكريم فى أكثر من خمسين ومائتى مرة تشير كلها إلى حقيقة المكان: «الموقع» **الذى لاينبغى للإنسان فى**

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ٧٣.
(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٨٥.
(٣) سورة النحل، من الآية : ٣٦.
(٤) سورة العنكبوت، من الآية : ١٦.
(٥) سورة الأنبياء، الآية : ٢٥.
(٦) سورة الذاريات، الآية : ٥٦.

الدنيا أن يجاوزه ولا أن يحاول التمرد عليه أو الغفلة عنه، وهو «مكان» العبودية لله وحده لاشريك له.

وإذا كان الحق سبحانه قد استخلف الإنسان فى الأرض وأسجد له ملائكته وكرمه على بقية خلقه، فهذا التكريم لاينبغى أن ينسيه حقيقة مكانه «عبداً» لخالقه، بحيث يحسن إدراك أن تكريم الله له سيجعل منه مجرد سيّد فى الكون لكنه يبقى عبداً يأتمر وينتهى ولا يمكن أبداً أن يكون سيداً للكون؛ **لأن هذا مقام الخالق وحده سبحانه وليس مقام المخلوق.**

* * *

ومكانة الإنسان فى الأرض بهذه المثابة ـ سيداً لنفسه وفى نفسه ـ تعطيه مقومات أهليته للنهوض بتبعات **الاستخلاف** التى ناطها به وحمّله إياها الحق سبحانه حين اختاره «خليفة فى الأرض».

فتبعات **«الاستخلاف»** من إعمار الأرض وحمايتها من الإفساد ودفع الظلم والظالمين عنها والتمكين فيها لقيم الحق والعدل والخير... هذه التبعات لاينهض بها ولا يقوى عليها **إلا الأحرار الذين لايحنون رءوسهم إلا لخالقها، ولا يخشون أحداً إلا الله،** ويكونون بهذا نعم النماذج الإيمانية الشامخة التى تضع مسار العلاقات والأحداث دائما على طريق الحق والعدل والخير، وتردّ عنها كل إفساد وعدوان. وهذه مهمة جليلة ونبيلة.

* * *

إن إفراد الله وحده بالعبادة والعبودية له هو أعظم وأرقى حالات الحرية الإنسانية التى تجعل صاحبها على مقربة من المنزلة التى يرى فيها بنور ربه ويأوى دائما إلى ركن الله الركين فلا يهن ولا يضعف.

هذه النماذج الإيمانية الشامخة هى التى انتصرت للحق واستشهدت فى سبيله من قبل ومن بعد على نحو ما كان عليه **«مؤمن آل فرعون»** وما كان عليه **«مؤمن أصحاب القرية»** اللذان ورد حديثهما فى سورتى «يس» و «غافر».. ثم ما كان عليه **أصحاب «الأخدود»** الذين ذكرتهم سورة «البروج» وأيضا على نحو ما قام به شهداء الدعوة ورجالها فى العهدين المكى والمدنى من أمثال **«آل ياسر» و «خباب بن الأرت» وبلال وسمية وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.**

هذه النماذج هى نتاج التربية الإيمانية التى جعلت من ضعفهم قوة ومن فقرهم غنى، وارتقت بمنزلتهم فمضوا شهداء أعزة شامخين.

أما أصحاب القلوب المدخولة من المشركين والمنافقين فهم بكل اليقين أضعف وأعجز من أن يكون لهم فى نصرة الحق موقف أو موقع؛ لأنهم بفراغ قلوبهم من الإيمان بالواحد الذى بيده ملكوت كل شيء أصبحوا ذوى أفئدة «هواء» تحدث عنها القرآن فى قوله:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾(١).

فأنَّى لأصحاب الأفئدة «الهواء» وأصحاب القلوب المرتعشة أن يكون على أيديهم دحر الباطل وإحقاق الحق؟!.

بل إن القرآن الكريم يَعُدّ هذه النماذج من أهل الشرك والنفاق.. يَعُدُّهم من أخطر الخلق على دعوات الحق؛ ولذا يقول للرسول ﷺ: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(٢).

* * *

ولبيان الأهمية الكبرى لوجود هذا النموذج الإنسانى الشامخ الذى حررته العبودية للخالق من أى خضوع أو عبودية للخلق ينبغى أن نقف على ما يصنعه المفسدون فى الأرض من **«الفراعنة» و«الهامانات» و «القوارين»** وأعوانهم الذين يستبدون بالإنسان فى حال عجزه وضعفه فيسرقون منه حريته وكبرياءه وإنسانيته ويجعلونه عبدًا لهم بدل أن يكون عبدًا لخالقه ورازقه، وهنا يكون الفساد الأعظم للإنسان وللحياة. حتى لنرى من يقول لقومه:

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾(٣).

وهو نفسه الذى كان «يذبِّح أبناءهم ويستحيى نساءهم» لأنه لم

(١) المنافقون : ٤.
(٢) المنافقون : ٤.
(٣) سورة النازعات، الآية : ٢٤.

يجد الإنسان الحرّ الذى يُعَبِّدُ نفسه للخالق فاستعبده المخلوق، وهو ما قررته الآية الكريمة ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾(١).

لقد استفرغ «**الفرعون**» طاقاتهم، وشلّ فاعليتهم فاستحالوا بعبوديتهم له إلى مايشبه «**التروس**» الصغيرة فى «**الآلة**» الكبيرة لايملكون إلا أن يدوروا، ويدوروا حتى يتحطموا هم، أو تتحطم الآلة كلها على نحو ما انتهت إليه كل الأنظمة المستبدة بالإنسان من دمار فى القديم والحديث.

* * *

من هنا كان ارتفاع راية «التوحيد»: (**لا إله إلا الله**) وإعلان العبودية لله وحده، ورفض أى استعباد من الإنسان للإنسان: هو وحده الذى يحرّر الطاقات الإبداعية للإنسان، وينمّى قدراته الإيجابية فى مواجهة أى باطل أو منكر دون أن يخشى فى الله لومة لائم.

كما يوسِّع آفاق ولائه وانتمائه واهتماماته لتشمل كل إخوته فى الله، بل لتشمل الإنسان حيثما وجد الإنسان ينتصر له ويحمل همومه ويشاركه السراء والضراء، وتكون هذه هى النقلة الحضارية بالإنسان الذى حررته «**العبودية لله**» من كل سلبيات عنصر الطين الذى هو أصل خَلْقه وبعض طبيعته.

---

(١) سورة الزخرف، الآية : ٥٤.

وكنموذج لهذه النوعية من الشخصيات الإنسانية الشامخة رغم بساطتها الشديدة وتواضع المكان أو الوضع الاجتماعى لها أسوق شخصية جندى عربى مسلم كان فى جيش معركة **(القادسية)** بقيادة الصحابى الجليل **(سعد بن أبى وقاص)** وكانت المعركة فى مواجهة جيش الفرس الذى كان قائده يدعى **«رستم»**.

وطالت أحداث المعركة دون حسم لصالح أحد الطرفين، وطلب القائد الفارسى أن يبعث له القائد العربى شخصا للتفاهم فى الأمر.

ووقع الاختيار على **«الجندى» «ربعى بن عامر»** ولهذا الاختيار دلالات لايمكن تجاوزها، وأهمها:

أن **«ربْعى بن عامر»** لم يكن من الشخصيات العسكرية أو غير العسكرية المرموقة أو حتى المعروفة، وإنما كان جنديا **«مجرد جندى»** من آلاف أو عشرات الآلاف من أمثاله الذين تمتلئ بهم الجيوش، ومع هذا بعثوا به ليكون رسولهم أو بتعبيرات عصرنا ـ المتحدث الرسمى باسمهم ـ مع قائد الجيوش الفارسية «رستم» فما الذى يعنيه ذلك؟.

أقول: إن المعنى الأكبر وراء ذلك هو أن ذلك المجتمع ـ مجتمع النبوة والراشدين ـ كان بجميع أفراده الكبار والصغار، والمسئولين والعامة والقادة والجنود..

كل أفراد هذا المجتمع كانوا يعيشون فكرًا وسلوكا وممارسة فى ظل «عبوديتهم» الكاملة للواحد الأحد..

يعيشون حالة شاملة من الشموخ والاعتزاز بكرامة الإنسان وكبريائه التى يستوى فيها الجندى بالقائد، والكبير بالبسيط مادام الجميع قد صهروا فى بوتقة الثقافة الإسلامية الرفيعة التى تلقوها على يد المعلّم الأعظم محمد ﷺ والذى غرس فى أفئدتهم الإحساس العظيم بالمساواة الذى يكون عليه شعور عباد الله وعبيده، وهو ما عبّر عنه قول الرسول ﷺ:

« المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم »[1].

. . . نعم **يسعى بذمتهم أدناهم** - أى يتحدث باسمهم ويمثلهم أدناهم - لأنهم فى الحقيقة ليس بينهم أدنى وأعلى، فالكلّ أطراف أو أعضاء لجسد واحد، لايغنى فيه طرف عن طرف، إلا بمقدار مايكون من **التفاوت فى حالة ومرتبة «العبودية» لله**. وهذا هو المجتمع الأمثل كما نرى سلوكيّات أفراده مبثوثة فى آيات القرآن، وأحاديث الرسول، ومواقف الصحابة.

* * *

وللمزيد من الضوء أعرض مادار بين «الجندى» المسلم **« رِبْعى بن عامر »** الذى مضى إلى القائد الفارسى «رستم» حيث كانت قد ضُربت له فى ميدان القتال «خيمة» فارسيّة فخمة ضخمة مفروشة

(١) أبو داود ٢٧٥١ وابن ماجه ١٦٨٣ والبيهقى ٨/ ٢٩.

بالسجاجيد ومصفوفة فيها الزّرابى والسرر، وفى صدرها مجلس يجلس عليه القائد حيث يحيط به الحرس والأعوان والخدم.

مضى «الجندى» «**ربْعى بن عامر**» بسيط المظهر فيما يرتدى من اللباس والمركب حتى بلغ خيمة القائد فترجل فمشى حتى بلغ سرير القائد فقفز حيث جلس إلى جواره دون أن يستشعر حرجًا أو أنه جاوز حدود اللياقة أو الأدب؛ لأنه فى معسكره: معسكر المسلمين الذين رُبُّوا على أنه لاعبودية بين الخلق، والعبودية كلها للخالق سبحانه.

فلما أنكر الحرّاس مسلكه وهمُّوا به صرفهم عنه قائدهم وأخذ فى محاورته، قال «رستم»:

فيم خروجكم أيها العرب؟

إن كنتم تريدون المال أعطيناكم؟ وإن كنتم تريدون كيانا مستقلا بكم فى ظل دولتنا أذنًا لكم؟

فقال «**ربعى بن عامر**»: ما لهذا خرجنا.

قال رستم: ففيم خروجكم؟.

فقال «ربعى»: جئنا لنخرج الناس من عبادتكم إلى عبادة رب العباد، وجئنا لنخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

فلما انصرف قال القائد الفارسى: إن كان أصحاب هذا كلهم على شاكلته فلا قبل لنا بهم.

نعم: لا قبل لعبيد الدنيا والأذلاء لذوى السلطان فيها.. لا قبل لهم بمن حررتهم «عبوديتهم لله» من أن يكونوا عبيدًا للمخلوق أيا كان ذلك المخلوق. وهذا ما انتهت إليه المعارك بين المسلمين والفرس، فلم يمض قليل حتى فتحت فارس، وجاءت غنائمها وكنوزها وجواهرها لتوضع بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ فيقول:

* إن قومًا أدّوا هذا لأمناء. يقصد أنهم لم يغلُّوا ولا أنقصوا منه قطعة. فقال له أحد الحاضرين:

* عففت فعفّوا يا أمير المؤمنين.

وصدقت المقولة، فالناس على دين أمرائهم وقادتهم وملوكهم لكن الأمر بحاجة إلى تعليق نقول فيه:

«لم تطرف كنوز الأكاسرة وجواهرهم عيون المجاهدين من المسلمين **ليس فقط لأن أميرهم كان عفًّا فَعَفُّوا، ولكن لأنهم ربّوا فى المدرسة المحمدية التى جعلتهم أكبر من الدنيا وزينتها وكنوز كسرى وقيصر.**

وهكذا فى ظل العبودية للخالق وحده يتساوى الناس، فتنتفى عنهم مشاعر الإحساس بالدونية، وتنطلق فيهم طاقات الإبداع.

* * *

التمايز بالعلم ثم بالتقوى :

على أن مما يجب تسجيله أنه إذا كانت «العبودية» لله وحده تصنع الحرية الكاملة لعبيده وعباده، وتقيم بينهم المساواة على أساس أنهم ـ وكما جاء فى الحديث الشريف ـ : « **لافضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب**»(١).

فإن هذا لايعنى ـ مطلقا ـ إهدار الفروق الفردية التى يتمايز بها الناس فى الملكات والقدرات وأنواع الثقافات والمواهب؛ فهذا مالايغفله الإسلام، ولا يلغيه التساوى فى حالة «العبودية» للخالق!!

ذلك لأن ثمة تمايزاً بنَّاءً وإيجابيًّا قرره الإسلام واعترف به **بحيث لا يكون الجميع كالقوالب المتشابهة**؛ فهذا ما ينافيه الواقع.

والتمايز الذى اعترف به الإسلام وأقره، بل **وحثّ عليه** هو **التمايز بالعلم الذى اعتبره القرآن الكريم معيار التفضيل لآدم** حين علّمه الله الأسماء وأسْجَد له الملائكة.

ثم: ما نطقت به الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى فى سورة آل عمران:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾(٢).

(١) الإمام أحمد ٥/ ٤١١ ومجمع الزوائد ٨/ ٨٤.

(٢) سورة آل عمران، من الآية : ١٨.

وقوله فى ختام آية لها دلالتها من سورة «فاطر»: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾(١).

ثم قوله: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾(٢).

* * *

ولنا ـ مع اعتراف القرآن بالتمايز بالعلم والدعوة إليه ـ وقفة:

فإن فتح الباب واسعًا وملحوظًا أمام التمايز بالعلم إنما يعنى إطلاق الطاقات والهمم صوب التفوق والإبداع الحضارى الذى يتبوّأ به المسلمون المكان الذى هو ضرورى ولازم لهم لكى ينهضوا بالدور القدرى المنوط بهم، والذى قررته الآيه الكريمة:

﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾(٣).

ومادام هذا قدر الأمة المسلمة **فليكن تسلّحها بالعلم سبيلها إلى امتلاك القوة المادية بكل أنواعها لتمكن لها فى أرض الله** حتى تستطيع **هى التمكين لكلمات الله، والتى هى مناط الاستخلاف** الذى أشارت إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن**

(١) سورة فاطر، من الآية : ٢٨.
(٢) سورة الزمر، من الآية : ٩.
(٣) سورة آل عمران، من الآية: ١١٠.

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ﴾[1].

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[2].

ثم فى قوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾[3].

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[4].

* * *

والانتصار لله ـ وفق المنهج القرآنى لبناء أمة الرسالة العالمية والخاتمة ـ ليس فقط فى الإكثار من صيغ التعبُّد، **ولكنه ـ فى حقيقته ـ العمل المتواصل لامتلاك القوة ـ بحسب الموازين الأرضية ـ اقتصادية أو سياسية أو عسكرية أو علمية.**

امتلاك هذه القوة التى تساعد ـ كما أشرنا ـ على فرض الحق والعدل، وإعلاء راية التوحيد، والتمكين للوسطية الإسلامية العادلة التى ترسى على الأرض السلام، وتعطى للإنسانية بعد عسر يسراً.

* * *

(١) سورة النور، من الآية : ٥٥.
(٢) سورة الحج، من الآية : ٤١.
(٣) سورة الحج ، من الآية : ٤٠.
(٤) سورة محمد ، الآية : ٧.

قوام حركة المجتمع هو دفع الحق للباطل ودفع الخير للشر والتمكين فى الأرض لكلمات الله

والقسمة الثانية من قسمات المجتمع الأمثل كما يراه «القرآن» هى وفرة الحيوية القوية لقيم الحق والعدل والإصلاح، ولكل المثل والفضائل النبيلة بما تتمكن بها من إزاحة الباطل والفساد والظلم وكل أنواع الرذائل.

بإيجاز: هو المجتمع الذى يعلو فيه الحق على الباطل، والخير على الشر، والصلاح على الفساد فى كل موقع أو موقف يكون فيه تدافع بينهما.

فإذا كان التدافع فى جانب العقيدة مثلا بين «التوحيد» وبين «الشرك» أو بين «الجاهلية» وبين «الإسلام» كان من الحتم المقضى أن ينتصر «التوحيد» على «الشرك» وأن تهزم «الجاهلية» أمام زحف «الإسلام».

وهكذا فى كل تدافع بين حق وباطل؛ لأن هذه هى سنن الله،

ولا يجوز لسنن الله أن تتخلَّف، وفق ما تقرر فى آيات الكتاب الكريم من مثل قوله:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1].

وقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[2].

* * *

وربما تسرّب إلى خواطر بعض من يقرأون هذه الكلمات الواثقة عن أن انتصار الحق وهزيمة الباطل حتم مقضى ـ شئ من الدهشة؛ لأنهم يرون صورة الواقع المعيش اليوم سواء على مستوى الأفراد والشعوب أو على مستوى الأنظمة والدّول... يرون صور الفساد والظلم والباطل والعدوان وغيرها من قوى الشر والإفساد فى الأرض هى المتمكنة والمهيمنة والقاهرة لقوى الحق والعدل!! **كما يرون قيم الإسلام «غريبة» و «محاصرة» ومحالاً بينها وبين الحياة والناس!!**

وأقول:

إن ما يقع فى الوجدان من مثل هذه الخواطر لا ينقض أبداً سنن الله التى أشرنا إليها، وإنما يؤيدها ويؤكدها.

ذلك لأن انتصار الحق واندحار الباطل إذا كان يتم فى عصر الرسالات بالمعجزات الإلهية التى أهلكت الظلمة والمبطلين، ولكنه

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨١.
(٢) سورة الأنبياء، من الآية: ١٨.

بعد ختم الرسالات بالإسلام وانتهاء عصر المعجزات أصبحت مهمة الانتصار للحق مهمة الإنسان نفسه الذى عليه ـ وحده ـ أن يتقدّم لمقارعة الباطل ويدفعه حتى يهزمه ويفسح المكان للحق.

الجهد البشرى ـ جهد الإنسان ـ الذى هو الآن المسئول وحده عن القيام بهذه المهمة مهما لقوا فى سبيلها من ابتلاء.. وذلك وفق القانون الربانى ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾[1].

* * *

ومما ينبغى الالتفات إليه فى تحديد نوعية وملامح الإنسان المؤهل لإحداث التغيير والانتصار للحق ما تتحدث به آيات كثيرة فى القرآن تقرر أولا أن من بعض سنن الله أن يكون نموذج «**إنسان التغيير**» **والانتصار للحق أصبر الناس على البلاء وأكثرهم احتمالاً لكل ما تصنعه محاولة دحر الباطل من تضحيات.**

فجاءت بعض الآيات لتقرر مبدأ «**تمحيص أهل الإيمان**» بخصائصهم التى تكون مرضاة الله وابتغاء وجهه فيها هى الغاية ولو كانت الشهادة دونها هى الثمن، على نحو ماجاء فى قول الحق سبحانه:

﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾[2].

(١) سورة محمد، من الآية : ٧.
(٢) سورة العنكبوت ، الآيات : ١ ـ ٣.

وقوله سبحانه:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(١).

ثم قوله فى سورة آل عمران أيضا لتقول للمرشحين من البشر للنهوض بهذا الدور الكبير فى نصرة الحق إنكم جزء من سنة ربانية لا ينالها غيركم، فتقول:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

* * *

ومثلها آية النساء: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٣).

ونعود إلى سورة آل عمران التى توصف بأنها سورة الجهاد لنقف

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.
(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٠ ـ ١٤٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

فيها على وصف الحق سبحانه لذلك النموذج البشرى الموعود بأن يكون نصر الحق وخذلان الباطل على يديه فيقول:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

* * *

هذا النموذج الإنسانى الذى لم يكن له مطلب ـ وهو يقاتل فى سبيل الله ـ إلا أن يغفر الله له ذنبه وإسرافه فى أمره ثم تثبيت الأقدام حتى يتم النصر.

هذا النموذج الذى لم تكن الدنيا أكبر همّه ولا مبلغ علمه هو وحده القادر على إحداث التغيير الرشيد وفق قيم الحق والعدل.

وحين يتوفّر هذا النموذج لا نكون أمام أفراد، بل أمام تيار من الطاقات تستطيع ـ بقيمها قبل قوتها ـ **أن تنهض بالدور المنوط بأمة الرسالة الخاتمة، الأمة الخيرّة** التى أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتعلن الإيمان بالله، وتقف ـ بوسطيتها ـ المنحازة أبدًا إلى جانب الحق والعدل لتوقف هذا الاندفاع المخيف والطاغى

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٦، ١٤٧.

فى عصرنا إلى عبادة «المادية» وتأليه «العلم» وشلّ يد المنظمات «العالمية» بل واستخدامها فى تقنين الظلم والدفاع عن الظالمين.

وما موقف مجلس الأمن المتعنت والمنحاز ضد شعب العراق.. بل ما موقف أمريكا من قضية القدس وفلسطين لصالح إسرائيل ببعيد!!.

* * *

ولنتصوّر ـ معًا ـ هذا المجتمع المنشود، والمنحاز إلى قيم الحق والعدل.. لنتصوره الآن قائمًا على اتساع حدود وإمكانات وتعداد وقيم الأمة المسلمة التى تقتعد خمس مساحة الكرة الأرضية وفيها خمس سكان العالم!! فماذا يكون عليه حال العالم؟

إن أبسط مايحدثه هذا الكيان العظيم الذى لو قدّر له أن يقوم «بالمواصفات» المشار إليها هو:

* إنهاء ـ أو على الأقل ـ تحجيم هذه «الفرعونية» الدولية التى فرض «أهل الشمال» بها سلطانهم ونفوذهم على أهل الجنوب بل على بقية العالم لصالحهم وحده ولصالح إسرائيل معهم.

* قيام قوة عالمية كبرى تعتمد فى علاقاتها الدولية قيم الحق والعدل والسلام والتعايش، وتكون ظهيراً للمستضعفين فى الأرض يحميهم من بطش الأقوياء.

* يكون المجتمع المنشود الذى تقيمه هذه الأمة الناهضة نعم

الأسوة والقدوة فى اتجاهاته السياسية والاقتصادية والإنسانية لبقية شعوب العالم، بما يجعل قلوبهم تهفو إلى السلام وإلى قيمه، فيكون هذا ميدانًا لانتصار **الإسلام «الفاتح» بذاته**، لمجرد التأثر بمثله ومبادئه دون أن يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب.

وغير هذا كثير.

وهنا أود التنبيه والتنويه إلى أن قيام هذا الكيان العالمى الإنسانى الكبير ليس خيال شاعر، ولا أمنية محب لدينه!

ولكنها رؤية قارئ مدقق للواقع العالمى الذى نعيشه الآن، بما يمتلئ به اليوم من أسباب الاضطراب والمفاسد، مؤمن يقينا، وبتفاؤل بلا حدود بأن **خلاص الإنسانية اليوم من آلامها ومظالمها لن يكون إلا إذا أتيح لمبادئ الإسلام ولعطائه الحضارى العظيم أن يتعرف عليه العالم ويقف على حقيقته من خلال النموذج الذى نتحدث** عنه.

* * *

ومبعث ثقتى وتفاؤلى أن هذا المجتمع الذى نتحدث عنه سبق قيامه بالفعل على أرض الواقع فى عصرى النبوة والراشدين فى ظروف ذات مشابهة كبيرة لما هو قائم اليوم.

ومع هذا اندحرت الجاهلية أمام زحف الإسلام، وتلاشت القوتان العظميان: قوتا الفرس والروم حيث كانتا تحملان من أسباب الزوال ما تحمله اليوم القوى العالمية المهيمنة من نفس أسباب الزوال.

* * *

ومن ثم فما سقناه من تصوّر قرآنى لبعض قسمات هذا المجتمع الأمثل إنما هو ضبط دقيق لإمكانيات قيامه بالفعل. كما سبق أن ذكرنا فى عصرى النبوة والراشدين.

بل ويمكن قيامه اليوم متى توفّرت نفس الأسباب والظروف، وتلك مهمة من يؤمنون به ومن يحسنون عرضه والدعوة إليه؛ شريطة أن يتسلح بالوعى العميق بأحوال الأمم وأسباب قيامها وازدهارها، ثم أسباب اندثارها وانحطاطها، والوعى العميق أيضا بمتغيرات العصر والفوارق التى يصنعها اختلاف الأزمنة فى الناس والحياة، وحتى تأتى لغة الخطاب مناسبة لما يسميه أهل البلاغة «مقتضى الحال».

* * *

القسمة الثالثة

إعمار الأرض ومقومات الاستخلاف

ولأن من أبرز مظاهر تمايز «الإسلام» أنه الدين الذى لم يدر ظهره للحياة ولم يدع إلى «الرهبانية» واعتزال الدنيا، بل أمر بالإقبال عليها إلى الحدّ الذى يقول فيه الرسول ﷺ : « **لو أن بيد أحدكم فسيلة** (وهى الشتلة من النبات) **وعلم أن القيامة تقوم الساعة، فإن استطاع أن يغرسها فليفعل**»[1].

وهذا يعنى دعوة إلى الأمل وإلى التعلُّق بالحياة وبالأرض، ليس لأنها المستقر الأبدى للإنسان ولكن لأنها «المختبر» لإمكاناته وقدراته ومدى أهليته للإفادة من «العلم» الذى علّمه الله لأبى البشر آدم وأسجد له به ملائكته.

وحين يخاطب الحق سبحانه بنى الإنسان بقوله: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾[2]. (أى طلب إليكم إعمارها).

(١) الإمام أحمد ٣/ ١٨٤، ١٩١ ومجمع الزوائد ٤/ ٦٣.
(٢) سورة هود، من الآية : ٦١.

فلا ينبغى أن يقتصر فهمنا للأمر الكريم على أن المراد الإعمار الزراعى فحسب، وإنما ينبغى أن يتسع الفهم ليشمل كل أسباب الإعمار على اختلاف أنواعها واتجاهاتها، الاقتصادية والعسكرية والحضارية والعلمية وغيرها.

* * *

فإعمارها بالزراعة يعنى ببساطة معروفة إحياء الأرض الموات، واستنبات خيراتها لإغناء الإنسان وتوفير حاجاته من الغذاء ومكونات الكساء بما يوفر له أولى الضروريات التى لا غنى له عنها، والتى يعنى توفيرها منحه غنى من نوع آخر **هو الاستغناء عن مدّ يده إلى الآخرين**.

والغِنَى عن مدّ اليد إلى الآخرين يستتبع نتائج إيجابية أخرى أهمها **امتلاك الإرادة، وتحقيق الاستقلال عند اتخاذ أى قرار** اقتصادى أو سياسى أو ثقافى أو عسكرى، فلا يكون «للحاجة» أى تأثير فيه، وهذا يستتبع توفر الاستقلال والتميز للأمة كلها لتقوم بالتمكين فى الأرض لكلمات الله.

وكما قرأنا وسمعنا ولمسنا فى الزمن الذى عشناه فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم ماتصنعه «الحاجة» ـ والحاجة إلى «الغذاء» خاصة ـ من أثر ضاغط وخطير على استقلال «القرار السياسى» فى الدول المحتاجة.

ولعل من أبرز الأمثلة فى ذلك ما وقع فيه «الاتحاد السوفيتى»

قبل انهياره من خضوع لمطالب الولايات المتحدة [العدو الأكبر له آنذاك] بضرورة السماح بتهجير العمالة الفنية «اليهودية» إلى إسرائيل فى مقابل أن توافق أمريكا على إمداده بالقمح الذى فشلت سبع خطط خمسية زراعية [٧×٥=٣٥ سنة] فى توفيره للشعب لأسباب فساد النظرية «الماركسية» التى قتلت الدافع الذاتى لدى الفلاح حين ألغت «الملكية الخاصة» وأحلّت محلها الملكية العامة للدولة والمجتمع.

* * *

وهنا يكون إعمار الأرض ـ وخاصة فى ظل الرؤية الاقتصادية الإسلامية التى تقوم على «**خصوصية الملكية**» ـ أى الاعتراف بالدافع الذاتى للإنتاج وحمايته وصيانته «**من قتل دون ماله فهو شهيد**»[١].

وتقوم فى الوقت ذاته على «**عمومية المنفعة**» بحيث يكون للمجتمع حق الانتفاع بالمنتج دون احتكار ودون استغلال.

هنا يكون إعمار الأرض ـ بالزراعة ـ أمانا للمجتمع وأمانا للمنتج وتوفيراً للاستقلال التام لدى صانع القرار.

* * *

وحيث أشرت إلى أن «عمومية المنفعة» كملمح أساسى فى الرؤية الإسلامية لعلاقة الإنسان بالمنتج الزراعى بعد استيفاء كل ما تفرضه خصوصية الملكية من حقوق.

(١) البخارى ٣/ ١٧٩ ومسلم (الإيمان) رقم ٢٤٦ وأبوداود ٤٧٧٢ وابن ماجه ٢٥٨٠ والإمام أحمد ١/ ٧٩، ١٨٧، ١٨٨.

إذ أشرت إلى «الزراعة» فإنما هى مثال لكل منتج وكل متموّل تحكمه **خصوصية الملكية وعمومية المنفعة**. وأشير هنا إلى أنه ـ فى مجال الإعمار الزراعى للأرض ـ إذا زاد المنتج عن حاجة الفرد والمجتمع فى الدولة الإسلامية أصبح فى هذا الرصيد الزائد عن حاجة المسلمين حق للآخرين أيا كانت عقيدتهم.

الحق فى الانتفاع به دون مغالاة فى الأسعار، وبعيدًا عن الاحتكار والأنانية المذمومة.

ذلك لأن الإسلام يعتبر أن رزق الله لعباده ـ كل مايرزقهم الله به ـ **فيه حق الانتفاع للجميع ـ مسلمين كانوا أم غير مسلمين** ـ فإذا اكتفى المسلمون وجب أن ييسروا للآخرين حق الانتفاع به مقابل «الثمن» الذى هو فى الحقيقة مقابل نفقات الإنتاج.

أقول هذا، ولا يبارح خاطرى أن الأغنياء فى العالم الغربى ـ عالم الشمال ـ **يرمون بفائض «الزبد» فى المحيط** حتى لايزيد المعروض منه فى الأسواق على ماهو مطلوب فينخفض سعره. **ويحرقون فائض «القمح»، ويرصفون الطرقات بفائض القطن** كل هذا حرصًا على عدم انخفاض السعر غير متعاطفين مع ملايين الجياع والمرضى والعرايا من الأطفال والنساء والشيوخ الذين تحصدهم المجاعات والأمراض فى معظم دول العالم الثالث!!

أليست الرؤية الإسلامية هنا هى شاطئ الإنقاذ الذى تبحث عنه كل

السفن التائهة فى محيط الأنانية الغربية بحثا عن مكان آمن ترسو عليه؟.

نعم إنها كذلك.

* * *

على أن إعمار الأرض لايتوقف على المجال القريب التناول وهو الإعمار الزراعى فحسب وإنما يمتد إلى مجالات أخرى كثيرة، نذكر منها:

إعمار الأرض باستثمار وتنمية كل ما عليها من إنسان ونبات وحيوان، ثم بما تحمل سطوحها من أنهار وجبال وصحارى وبحار ومحيطات، ثم بما فى جوفها من المعادن ومكونات الطاقة كالبترول وغيره.

فهذه المجالات جميعها تدخل فى نطاق الأمر بالإعمار.

ولو مضيت أتتبع تفصيلات الإعمار فى كل ذلك لاحتاج الأمر إلى موسوعة ضخمة تتحدث عن مهام علوم البحار، سواء فى حركة المد والجزر فى مياهها وما لها من تأثيرات على مناخ الأرض، وسواء فى ما تضمه البحار والأنهار من ثروة حيوانية ضخمة تسهم فى صناعات غذاء الإنسان أو ما يمكن استثمارها فيه.

ولكان الأمر محتاجا كذلك إلى موسوعات تتحدث عن «جيولوجيا» الأرض وأحوال طبقاتها، سواء الظاهرة منها

كالصحارى والجبال، أو الباطنة كالبراكين والزلازل، ومحتاجًا كذلك إلى دراسات مفصلة فى أحوال النبات والحيوان والطير والوحوش وغيرها مما لامجال للقول هنا فيه.

وحسبى أن أذكر الآيتين الكريمتين فى سورة «فاطر» واللتين أراهما من أعظم الإشارات والتوجيهات للإنسان فى إرشاده إلى أسلم وأدق البدايات فى **عملية «الإعمار»** بداية النظر والبحث والدراسة واستخلاص النتائج للانتفاع، حيث تقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(١).

* * *

على أن لإعمار الأرض الذى نحن مأمورون به بمقتضى الآية الكريمة:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾(٢).. لهذا الإعمار معان وإشارات كثيرة لها دلالاتها، أذكر منها الإعمار بدلالته

---

(١) سورة فاطر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة هود، من الآية: ٦١.

النفسية؛ حيث يحمل الإعمار والبناء والإضافة المستمرة للحياة كل يوم معنى وجود وتجدد واستمرار الأمل والتعلق بالحياة كما جاء التعبير عنه فى حديث زرع الفسيلة عند قيام الساعة الذى سبق ذكره.

وبَعْثُ «الأمل» وتجديده واستمراره يعنى التعلق بالحياة والحرص على الاستمتاع بها وامتلاك أسباب القوة فيها، وهو ما يتفق مع **جوهر الإسلام الرافض للرهبنة، واستدبار الحياة**.

ومن هنا يكتسب المجتمع بحركة وطاقات أفراده حيوية دافقة لصناعة الحضارة وامتلاك أسباب القوة والتمكين فى الأرض والقدرة على حمايتها وحماية الإنسان فيها من الإفساد والمفسدين.

* * *

ولإعمار الأرض أيضا ارتباط وثيق ودائم بتأهُّل الإنسان للقيام بمهمة الاستخلاف التى قدرها الله له.

فالاستخلاف أمانة وتبعة كبرى على الإنسان أن ينهض بها، ولها شروطها ومتطلباتها العلمية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية، وغيرها من كل ما يجعل الإنسان قادرًا على حسن إدارة الحياة، وضبطها على موازين القيم والأخلاق والشرائع السماوية، ليس فقط فى مجتمع المسلمين وإنما على القيام بهذه التبعة فى محاولة حمل الآخرين عليها.

وعندما تحدث القرآن عن حمل الإنسان للأمانة العظمى دون غيره من المخلوقات فى قوله: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾[1] فإنما يشير ويؤكد على خطورة وضخامة مهمة «الاستخلاف» التى يجب أن تمضى كل اتجاهاتها على طريق الإصلاح والإعمار وحماية الأرض بمن فيها ومافيها من الإفساد والشر.

ولذا نجد أن القرآن بمقدار ماجعل **«العلم» هو الميزة الكبرى** للإنسان حتى سجدت له الملائكة نجده (القرآن) يركز بجوار **«العلم» على «العمل»** فنرى مادته (العمل) تتردد فى القرآن فى أكثر من خمسين وثلاثمائة مرة، بينما تكررت مادة «العلم» فى القرآن أكثر من سبعمائة وخمسين مرة، بما يعنى الإشارة الواضحة إلى أن **«العلم والعمل» معًا** هما عماد نجاح الإنسان فى مهمة الاستخلاف وفى إعمار الأرض وحمايتها من الإفساد والخراب، مع ملاحظة أن «العلم» يجب أن يكون الموجّه والقائد لكل عمل.

وتلك خصوصية حضارية لعطاء الإسلام العظيم فى إرساء معالم الطريق على الأسس القوية التى فطن إليها وأحسن فقهها سلفنا الصالح فكانوا نعم النماذج فى العالم، واستطاعوا بذلك أن يقدموا الإسهام الذى لاينسى للحضارة الإسلامية، وكانوا به نعم القدوة للحضارة الإنسانية.

* * *

(١) سورة الأحزاب، من الآية : ٧٢.

التوازن بين العلاقات فى كيان المجتمع
(الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ السياسية ـ الإنسانية)

حين يأمر الحق سبحانه الرسول ﷺ بأن يشاور أصحابه فى قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١).

* * *

وحين يصف سبحانه جماعة المؤمنين بمجموعة من الصفات يكون من بينها اعتبار «الشورى» إحدى ملامح مجتمعهم فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(٢).

حين يكون هذا والرسول بينهم، والوحى ينزل عليه من السماء فى جميع أمره، ومع هذا يؤمر ﷺ بأن يشاور أصحابه!!

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩.
(٢) سورة الشورى ، الآية : ٣٨.

فلهذا دلالة كبرى على أن **«الشورى»** كانت وتكون دائما إحدى القسمات الأساسية للمجتمع الإسلامى والإنسانى المنشود. **وأنها قاعدة ملزمة لايجوز إهمالها؛ لأن إهمالها وعدم العمل بها يعنى انفراد قائد المجتمع بالأمر وحده من دون الناس..**

وهذا مالم يقره الإسلام حتى لصاحب الرسالة الخاتمة ﷺ .

* * *

وقد أثبتت تجربة البشرية عبر تاريخها الطويل أن إغفال **«الشورى»** واستبداد الحكام بالأمر دون مشورة قد جرّ على البشرية ويلات الطغيان والقهر وما أديا إليه من الفقر والإذلال، وما تسبب فيه الطغاة من حروب كانوا يشعلونها لشغل شعوبهم عن الفقر والإذلال، وما تسبب فيه الطغاة من حروب كانوا يشعلونها لشغل شعوبهم عن فساد الداخل، مما كلف البشرية ملايين الضحايا ومليارات الأموال التى كان يمكن أن تنفق على التنمية وتحسين مستويات الحياة وإسعاد الإنسان.

لكنه الطغيان!! ولكنهم الطغاة حين يستبدون وحين يرفضون «الشورى» لا يعنيهم إلا استمرارهم فى مقاعد الحكم ولو احترقت الأرض وأهلك الإنسان.

وبداية من «نيرون» الذى جلس يغنى على أطلال «روما» وهى تحترق إلى «موبوتوسيسيكو» الرئيس الزائيرى الذى نهب ثروة البلاد وهرّبها إلى حسابات خاصة له فى الخارج وأسقط الثوار

دفاعاته واستولوا على البلاد، ومع هذا ظل يصرّ على البقاء فى السلطة ولو هلك الناس كلهم وبقى الطاغية فى موقعه. وأخيرا هلك الطاغية غريبا طريدا بعدما أهلك بلده وشعبه.

وبين «نيرون» روما، و «موبوتوسيسيكو» هناك طابور طويل من الطغاة المفسدين يبدأون **تاريخيا بفرعون وقارون وهامان** ثم يستمرون فى العصر الحديث مرورا بلينين وستالين وهتلر وموسولينى وسفاح الأرجنتين وغيرهم وغيرهم ممن شقيت بهم البشرية.

وعليه فلا خلاص إلا بالشورى.. التى يعبرون عنها الآن بالديمقراطية، مع الفارق الكبير فى ارتباط الأولى بوحى السماء الذى لايشرع إلا الحق والعدل، ولا يدل إلا على الخير..

وبين الثانية التى قد تشرع للناس ما يهلكهم على نحو ما أباحته الديمقراطية الغربية من زواج الرجل بالرجل، وإقرار «الاستعمار» ونهب خيرات الشعوب المستعمرة وما إلى ذلك.

* * *

هل الشورى ملزمة أم معلمة؟

ولأهمية هذه القسمة فى بناء مجتمع عادل وقويم كان لابد من وقفة أمام بعض أعراض «**النفاق السياسى**» الذى قام به بعض الكتاب ـ ومع الأسف العميق ـ شارك فيه بعض شيوخ الدين قائلين:

إن الديموقراطية (الشورى) **معلمة وليست بملزمة**، وأن من حق الحاكم أو ولى الأمر فى أى موقع ألا يأخذ بها وينفذ ما يراه هو..

قلت : وما فائدتها إذن؟ ولماذا أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ بها رسوله ﷺ أمراً صريحا بقوله:﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾[1].

قالوا :

لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال لرسوله بعد ما أمره بالشورى فى الآيه نفسها:

﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ وفسروا ذلك ـ بزعمهم ـ أن المراد به اختر أنت ماتراه وقم بتنفيذه، ومعنى هذا أن الرسول ﷺ غير ملزم بالشورى إذا لم يقتنع هو بها.

وهكذا يكون الحال مع كل حاكم... وتلك هى الكارثة!!.

مع أن ختام الآية ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ لا تعنى ذلك كما رآه المنصفون من المفسرين، وإنما تعنى النّهى عن مجرد التردد بعد ما تظهره الشورى من عزم المسلمين ومن عزم الأمة وإجماعها على قرار معين.

لكن من يزعمون أن «الشورى» معلمة لاملزمة قالوا ـ وعفا الله عنهم ـ:

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٥٩.

قالوا : إن الرسول ﷺ قال لأبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ:

« **لو اتفقتما على أمر ماخالفتكما**»[1] ومعنى هذا ـ فى زعمهم ـ أنه يكفى لولىّ الأمر أن يأخذ برأى واحد أو اثنين ثم يمضى إلى مايريد! دون حاجة إلى استشارة الأمة؟!.

ومع أن الحديث المشار إليه هنا ضعيف لأن بعض رواته محل تجريح! لكنه حتى لوصح ـ جدلا ـ فإنه لا يعنى أكثر من أنه ﷺ سيكون رأيه مع رأى صاحبيه، ولا يعنى أنه يريد أن يرفض ماتتفق عليه الأغلبية.

هذا، مع الأخذ فى الاعتبار أن الشيخين أبابكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ **كانا نعم التعبير عن رأى الجماعة وضمير الأمة، وما يريانه كأنه فعلا هو ما تراه الأمة، فليسا مجرد فردين فى مواجهة الجماعة، بل رأيهما هو التعبير الدقيق والصادق عن وجدان الجماعة المسلمة على نحو ما أثبتته الأحداث فى مناسبات كثيرة.**

* * *

لكن من يرون «الشورى» لمجرد الإعلام لا الإلزام، والذين يكثر احتشاد أمثالهم فى أروقة الحكام والمسئولين كانوا مصرِّين على أن

---

(١) الإمام أحمد ٤/٢٢٧ بلفظ : «لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما» ومجمع الزوائد ٩/٥٣.

يفرِّغوا الشورى من كل مضامينها، وأن يسقطوا كل أدلتها لحساب أهل الحكم والسلطان، ولهذا تحدثوا فأطالوا عن «صلح الحديبية».

وتحدثوا فأطالوا عن الموقف من «أسرى بدر»

وتحدثوا فأطالوا عن إنفاذ أبى بكر لجيش أسامة بن زيد، وعن قتاله للمرتدين ولمانعى الزكاة..

ثم تحدثوا عن قسمة عمر ـ رضى الله عنه ـ لأرض السّواد، رغم خلاف كثيرين من الصحابة معه، وغير ذلك مما تصدى له المنصفون، الذين ردّوا على الحجة بالحجة، وعلى الدليل بالدليل، مما يرجع إليه فى مظانّه.. وكلها تؤكد:

أن الشورى ملزمة.. ملزمة... وليست معلمة.

* * *

وأمرهم شورى بينهم :

ثم إن التعبير القرآنى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ والذى يأتى حالا ووصفًا عامًّا للأمة المؤمنة إنما يعنى أن تكون الشورى حال الأمة وصفتها فى كل ما تقوم به، ليس فقط فى العلاقة بين الرعاة والرعية، وليس فقط فى الأمور العامة والقضايا ذات الشأن، بل يكون الأمر شورى فى كل شئون الحياة، سواء فى محيط الأسرة بين الرجل وأهله، أو محيط العلاقة بين الفرد ومجتمعه، بل حتى

فى الأمور الشخصية للإنسان نفسه، حتى تكون الشورى ضمانا للسلامة عند اتخاذ القرار.

وأمة هذه صفتها ـ كما تحدث القرآن ـ لايجوز لبعض علمائها أن يُهَوِّنُوا من أمر «الشورى» حين تكون فى جانب العلاقة بين الشعوب وحكامها، فيقول بعضهم إنها **معلمة.. لا ملزمة، فيلغى ذلك رأى الجماعة، ويضع فى يد الحاكم سلطانا مطلقا يفتح أمامه باب الطغيان والفساد والفرعنة.**

* * *

وسنرى ـ حين نتحدث عن موجبات التغيير عند ظهور الفساد ـ كيف أن أعاظم المفسدين فى الأرض هم «الطغاة» الذين لامساحة للشورى فى علاقتهم بشعوبهم، ومن ثم يسومونهم الخسف، ويقودونهم إلى الدمار وإلى الخراب بما يغرسونه فى كيان الأمة ـ وبسبب غيبة الشورى ـ من عاهات الخنوع والمذلة، وانصراف أفرادها عن الاهتمام بأمورها العامة إلى العناية بأمورهم الخاصة..

ثم بما يشكلونه حولهم من جماعات المنتفعين بالسلطة والمنافقين لها مما تضيع فى زحمته الحقوق، وتتصدع بانتشاره «القيم» و«الثوابت» مما يؤدى حتما إلى أن يخمد صوت الأمة، وتنحلّ عزائمها، وتنتهى إلى الضياع.

لكن القضية ـ قضية الشورى ـ ليست مصير نظام يصلح أو يفسد

وتكتوى بنار فساده الشعوب، لكنها قضية عقيدة ورسالة منوط بأمة صاحب الدين الكامل والخاتم أن يبشروا بها فى الناس، ويمكنوا لها فى أرض الله.

ومن ثم فالتهوين من أمر الشورى وتضخيم سلطان الحاكم على حساب عزل الشعوب ليس فقط خيانة لمصالح الأمة، ولكنه فى حقيقته خيانة لله ورسوله، وكفى بها إثما عظيما.

* * *

القسمة الخامسة

الدور القدرى للمجتمع المسلم عالميًّا ومفهوم خيرية الأمة

ولأن محور بحثنا هو بيان المنهج القرآنى للمجتمع المسلم، وتوضيح قواعد البناء وأسباب الانهيار وكيفية دفع الباطل بالحق حتى يستقيم أمر المجتمع وتكون له السلامة والنمو.

فجدير بنا ـ ومن خلال معطيات القرآن وتوجيهات السنة النبوية ـ أن نكون على بينة من الصورة العامة التى يجب أن يكون عليها هذا المجتمع، وأن تتضح طبيعة العلاقات بين أجزائه وأفراده خاصة وأن الدولة الإسلامية التى اتسعت بعد عصر النبوة ضمت ألوانا وأجناسًا ومساحات من الأرض تباعدت بينها الديار والأقطار، والأصل ـ مع هذا الاتساع ـ أن تبقى على مثل ما كانت عليه عند بدء تكونها فى عصر النبوة والراشدين.

* * *

وهنا تكون «**البوصلة**» التى تهتدى بها هى الصورة الدقيقة والعظيمة واليسيرة الفهم أيضا، وهى تلك التى جاءت فى حديث الرسول ﷺ :

« مثل المؤمنين فى توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[1].

وجاء النص القرآنى مؤكدًا فكرة «التوحد» ومحذّرًا من الفرقة والتنازع بما يصنعه ذلك من الفشل والدمار فقال :

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[2].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3].

وقال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[4].

* * *

لقد كان المجتمع المسلم الذى نشأ فى المدينة المنورة بعد الهجرة، وكان نواة الدولة الإسلامية الكبرى التى شرّقت وغرّبت وتنامى على هديها الإسلام حتى أصبح يقتعد اليوم خمس الكرة الأرضية مساحة وسكانا.

(١) الإمام أحمد ٤/ ٢٧٠ ومسلم (البر والصلة) رقم ٦٦.
(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٠٣.
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٩.
(٤) سورة الأنفال ، الآية : ٤٦.

مجتمع المدينة المنورة كان ـ وسيبقى ـ **هو الصورة المثلى للمجتمع الذى ننشد قيامه اليوم** وغداً حتى نستعيد وحدتنا ونخلص مما نحن فيه الآن من ضعف وفرقة وتمزق.

مجتمع المدينة تجسّدت فيه وحدة القلوب والعقول كما توحدت الأهداف والوسائل، وتحمل الجميع تبعات الدعوة ومسئولياتها باحتشاد إيمانى رائع كانوا به نعم التطبيق الحى للمجتمع الموحّد رغم أنه كان يضم شريحة كبيرة غير مسلمة من اليهود، وكان لوجودهم آثار سلبية ظهرت فيما يعد.

وظهرت آثار هذا التوحُّد الحقيقى الذى كان بين عنصرى «الإيمان» فى المجتمع آنذاك ـ أعنى المهاجرين والأنصار ـ منذ وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا وراءهم ديارهم وأموالهم وأهليهم فى مكة، فأعلن الرسول ﷺ عن تجربته العظيمة ـ **تجربة الأمل المتجدد لإنصاف المحرومين والفقراء فى العالم اليوم وكل يوم ـ وأعنى بها تجربة «المؤاخاة»** التى كشفت عن نموذج إنسانى رفيع. كان رغم بداوته وبساطة معارفه أقوى من سلطان الأثرة والأنانية وشح النفس، وخرج بالمهاجرين من أزمة **«اغترابهم» بسلام صحى ونفسى** ما يزال مجتمعنا العالمى المعاصر المنقسم الآن إلى «شمال» فيه الثروة والوفرة والقوة والرخاء المترف يقابله «جنوب» يعانى الفقر والمرض والجهل والتخلف.. ولايجد من يأخذ بيده إلا بالقليل الذى لايتوازى مطلقا مع ما هو مكنوز لدى الأغنياء من أموال...

أقول : ما يزال المجتمع العالمى المعاصر وما تزال البشرية اليوم بحاجة قصوى إلى نموذج **«المؤاخاة»** الذى نتحدث عنه، وربما قيل: إن ماحدث فى تجربة المؤاخاة كان سببه الأعظم الاستجابة لرغبة الرسول ﷺ وبتأثير وجوده بين الناس، وهو ما لا يمكن تكراره اليوم؟؟!

أقول :

إن الاستجابة الفورية من **«الأنصار»** لمساعدة المهاجرين ومقاسمتهم أموالهم ودورهم معهم.. لم يكن فقط تلبية لأمر الرسول وإنما كان نتيجة لدور دَعَوِيّ رائع قام به أمير الدعاة **«مصعب بن عمير»** ـ رضى الله عنه ـ خلال شهور طوال كانت نتيجتها أن جاءت وفود الأنصار فى بيعتى «العقبة» الأولى والثانية، جاءوهما وقد صُفّيت أنفسهم من الأثرة والأنانية وشح النفس، فكانوا- كما أشرت ـ أكبر من الدنيا وزينتها، حتى إنه لما منَّ الله على المسلمين بِفَيْءِ «بنى النضير» سأل الرسول ﷺ الأنصار قائلا بما معناه:

أترون أن نخلط ما أفاء الله علينا به من بنى النضير على ما بأيديكم، ثم نعيد القسمة على الجميع بالسوية؟ فإذا الأنصار الذين وقاهم الله شح النفس يقولون :

لا يارسول الله.. بل أعط الفئ كلّه لإخواننا المهاجرين وحدهم **واقسم لهم من أموالنا إذا شئت!!!**

رضى الله عن الأنصار. . النموذج الأمثل والأعظم للإنسان حين يكون أكبر من المال والمتاع، وأكبر من غريزة «الحرص» والأنانية التى يطبع عليها أكثر الناس.

لقد استحقوا أن يقول القرآن فيهم واضعا على صدورهم هذا الوسام الرفيع :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

* * *

تلك هى القسمات الأساسية العامة للمجتمع الأمثل الذى يستقر فيه الكيان، وينمو به البيان، ويرضى الله عنه، ويملك القدرة على تقديم الإسلام للعالم فى أكمل صورة.

أما أسباب الانهيار والفساد وموجبات «التغيير» فهو ما نعرض له فى الفصل القادم بإذن الله.

* * *

(١) سورة الحشر ، الآية : ٩.